طقوس الدّفن عند العرب

ـ دراسة في الشّعر الجاهلي ـ

أ.عمرون عباسية
جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان (الجزائر)

الملخّص :

يُعتبر شعر الرثاء الجاهليّ من أهمّ الأغراض الشعريّة الّتي عبّرت عن الواقع الإجتماعي والدّيني للعربي . ففي ضلّ حياة يملؤها الاحساس بعنف الحياة وقسوتها و مجابهة حتميّة الموت و الفناء تولّدت في المجتمع الجاهليّ عـادات و تقاليـد متعـدّدة .نحاول في هذا البحث أن نسلّط الضوء على بعض العادات الّتي تظهر لنا افتقاد الجاهليّ للرؤية اليقينيّة بسـبب غيـاب الـدّين و الاعتقاد بوجود شكل من أشكال الحياة بعد الموت .

Résumé:

La lamentation ignorants des buts les plus importants de la poésie qui expriment la réalité sociale et religieuse arabe .

Dans une vies perdues remplis avec un sens violemment la vie et de la cruauté et de confronter l'inéluctabilité de la mort et l'anéantissement généré en pré-islamique habitudes de la société et de multiples traditions . dans cette recherche on va éclaircir certaines habitudes qui nous montrent l'absence de pré-islamique certitude de vision à cause de l'absence de religion et de conviction qu'il ya une certaine forme de vie après la mort.

يُعرّف الطقس على أنّه مجموعة من الإجراءات و الحركات التي تأتي إستجابة للتجربة الدينية الداخلية و تهدف إلى عقد صلة مع العوالم القدسية[1].

فالطقس هو جسر بين المتعبد و قوى قدسية معيّنة تزداد فعالية و غنى كلّما كان المعتقـد أكثـر وضـوحا و تعقيدا و الدليل على ذلك ما يراه محمد أركون حيث يقول: " الأديان و المعتقدات هي أنماط لصياغة طقسية و شعائرية تساعد على دمج الحقائق الأساسية و صهرها في أجسادنا لنتحكم بوجودنا كله[2].

فالطقس هو ناتج لمعتقد معين إلاّ أنّه يعود ليأثّر على المعتقد فيزيد في قوته من خلال الطابع الجمعـي الـذي يميّزه بحيث يعطي للأفراد الإحساس بوحدة إيمانهم و معتقدهم.

و من الطقوس الدينية التي فرضت نفسها في كل المجتمعات و عند كل الشعوب هي طقـوس الـدفن لتعلقهـا بظاهرة الموت التي كان لها تأثير كبير على تفكير الإنسان سواء كان بدائيا أو متحضرا.

فالموت ظلّ الشغل الشاغل للإنسان وهو الذي وضعه في حالة نفسية مضطربة ناتجة عن الحيرة و القلق حـول مصيره بعد الموت. و هي نفس فلسفة العربي الجاهلي و التي خلصت إلى حتمية الموت لكن إختلفت في مرحلة ما بعد الموت فمنهم من رأى الموت هي آخر المراحل و لا يمكنه أن يُبعث مرة أخرى و آخرون تأثّروا ببعض الديانات فآمنوا بأنّهم سيحيون حياة أخرى فجهزوا لها بلاياهم[3] إن صيح بهم لقيام الساعة. و لذلك نسج فكرهم طقوسا جنائزية كما فعلت الشعوب الأخرى[4] و التي يظهر الإختلاف جليا بينها لتعلقها بالمعتقد الديني. فمثلا طقوس الدفن عند الإنسان النياتدرتالي إبان الباليوليت الأوسط. وجدت ترتيبات خاصة بالدفن خوفا من عودة الروح إلى الجسد لأنّ الروح قد تُـزوّدت بقـوى تفوق قوى الأحياء بعد عبورها إلى المستوى الآخر[5].

أما طقوس الدّفن عند الجاهلي فتعلّقت ببقية من ديانات سماوية خاصة الحنيفية. و مع قدم العهد بها رسخت هذه الأفكار و الأفعال في الذاكرة الجمعية رغم ظهور الوثنية في المجتمع العربي.

و بما أن الشعر مرآت للحياة الإجتماعية الجاهلية يعبر عنها و هو يشمل مخزونا من المفاهيم الدينية الطقوسية دفعنا ذلك إلى البحث في موضوعنا المطروق ــ طقوس الدّفن ــ معتمدين على مدوّنة تشمل بعض الأبيات من التراث الشعري الجاهلي الخصب للكشف عن كثير من القضايا الفكرية القديمة و التي تفسرها الطقوس الشعائرية.

نجد هذه الطقوس الجنائزية و قد ذُكرت في مواضع عدّة خاصة ما تعلق بشعر الرثاء، كقصيدة إمرئ القيس و التي قالها في مقتلة بني آكل المرار على يد المنذر بن ماء السماء بالحيرة[6]:

فَلَوْ فِي يَوْمِ مَعْرَكَةٍ أُصِيبُوا   و لَكِنْ في دِيَــارِ بنـــي مَرِينا
و لَمْ تُغْسَل جَماجِمُهم بِغُسْــلٍ   و لَكِنْ في الدِّماءِ مُرَمّلِيــــنَا[7]

أما الأَفْوه الأودي فيُصوّر لنا و يدقّق الصورة لما يقوم به أهله إتّجاه جسده بعد الموت من تجهيز يجمع الغسل و التكفين و إنزاله إلى القبر و رصّ الحجارة فوقه و إهالة التراب. إذ يقول و كأنّه يعيش اللحظة التي يصفها[8]:

و مَا خِلْتُ يُجْدِيني أُسَاتي و قَدْ بَدَتْ   مَفَاصِلُ أَوْصَالي و قد شَخَصَ البَصَرُ
و جَاءَ نِسَاءُ الحيّ مِنْ غَيْرِ أَمْرَةٍ   زَفِيفًا كَمَا زَفَّتْ إلى العَطَنِ البَقَر
و جــاؤُوا بِمَاءٍ بــارِدٍ و بِغَسْلَةٍ   فَيــا لَكَ مِنْ غُسْلٍ سَيَتْبَعُهُ غَبَــــر

إلى أن يقول:

فَرَمُّوا له أَثْوابَه و تَفَجَّعُوا   و رَنَّ مُرِنـــَّاتُ و ثــارَ بِهِ النَّـــفَرْ
إلى حُفْرَةٍ يــأْوِي إِلَيْهَا بِسَعْيِهِ   فَذَلك بَيْتُ الحَقِّ لا الصُّوفُ و الشَّعْر
و هَالُوا عَلَيْهِ التُرابَ رَطْبًا و يَابِــسًا   أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا يسوّى ذَاكَ يُخْتَبَر[9]

فالشاعر هنا يسخر من فائدة الغسل إذا هو وُضع في التراب.

و يصف لنا الأحداث و كأنه واعي بما يُفعل به من غُسْل و تكفين و قَبْر فشعوره بالماء البارد و رطوبة التراب تظهر لنا و كأنّ الإنسان بعد موته لم يفقد سمعه و لا أحاسيسه.

كما كانوا يضعون في ماء الغسل ما يساعد على النظافة من سدر و أشنان و يغسلون رؤوسهم ولحاهم[10]. إستمر ذلك الطقس بعد الإسلام و قد يكون من بقايا الحنيفيّة. و قد يكون دالا على غسلهم لذنوب الميت من رجس الحياة ليستقبل حياة أخرى مطهّرا. و إن لم يفعلوا أعتبر ذلك معارة. و من الأمثلة ما حدث لأبي لهب[11]، و الذي مات بالعدسه[12].

و من شعائر الدفن أنّهم كانوا يكفّنون الميت مع وضع الحنوط[13] ثم يُحمل على سرير، مثل ذلك قول عنترة العبسي[14]:

و أَحْمِي حِمَى قَوْمِي عَلَى طُولِ مُدَّتِي   إلَــى أنْ أَرَانِي في اللَّفَائفِ أُدْرَجُ[15]

فهو يفخر بدفاعه عن حمى قبيلته إلى أن يُكفَّن فيُقبر.

أما ذكر الحنوط (التطييب) و ترجيل[16] الشعر فجاء في شعر يزيد بن حذاق حيث قال[17]:

قَدْ رَجَّلُونِي و بالشَّعَرِ مِنْ شَعَثٍ   و أَلْبَسُونِي ثِيَابًا غَيْر أَخْلاَق
و طَيَّبُونِي و قَالُوا أَيَّمَا رَجُلِ   و أَدْرَجُونِي كَأَنِّي طَيُّ مِخْرَاق
و أَرْسَلُوا فِتْيَةُ مِنْ خَيْرِهِم حَسَبًا   لِيُسْنِدُوا فِي ضَرِيحِ القَبْرِ أَطْبَاقِي

كما دفن العرب موتاهم بملابسهم و غطوا وجوههم إذا توّفتهم المنيّة بالأماكن المقفرة . و كانوا يصلون على الميت بذكر محاسنه و آثاره خاصّة إذا كان سيدا عظيما في قومه .و الإعلان على موت الشّخص يكون بالبكاء والعويل, سُمّي ذلك المناحة وهي تستمرّ مدّة سبعة أ يّام ,تندب فيها النساء و تنوح في الصباح و المساء ,وفي أيديهنّ النعال تصفقن بها وجوههنّ و صدورهنّ.

و قد سخر مالك بن الريب من قول مشيّعيه حسب التقاليد الإجتماعية العربية "لا تبعد" فيقول[18]:

يَقُولُونَ"لا تبعد" و هُمْ يَدْفِنُونِي   و أَيْنَ مَكَانُ البُعْدِ إلاَّ مَكَانِيَا

فمن عادات العرب دعائهم للميت بقولهم " لا تبعد " قد يكون ذلك دلالة على تأثرهم لرحيل الميت، فهم لا يتمنون أن تبعُد هامته [19] أي روحه و أن يبقى ذكره. فخصال الشخص قد لا تفنى مع فناء الجسد.
و كقول الخنساء في رثاء أخويها[20]:

فلا يُبْعِدَنَّ اللهُ صَخْرًا و عَهْدَهُ   و لاَ يُبْدَنَّ اللهُ رَبِّي مُعَاوِيَا
و لا يُبْعِدَنَّ اللهُ صَخْرًا فإنَّهُ   أَخُو الجُودِ يَبْنِي لِلْفِعَالِ العَوَالِيَا

فالخنساء كرّرت الدعاء " لا يبعدنّ " علّها تجد لنفسها سلوى متذرّعة بخصال أخويها. و إستجدائهاالله أنلا يُبعد صخرا و معاوية دلالة على إيمانها بأن الله هو مالك الأرواح إن شاء قبضها و إن شاء أبقاها.

كما بالغ الشنفرى الشاعر الصعلوك في أقصى درجات السخرية من هذه الطقوس التي تصاحب عملية الدفن، حيث يطالب بأن لا يُقبر و يُترك للضبّع تنهش جسده[21]:

فَلاَ تَقْبُرُونِي، إنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ   عَلَيْكُمْ و لَكِنْ أَبْشِرِي أُمَّ عَامِرِ[22]

و من عادات العرب طلب السقيا للقبر كقول الهدم بن امرئ القيس بن الحارث في رثاء عمر بن حممة الدوسي و كان من حكماء العرب[23]:

سَقَى الأَرْضَ ذاتَ الطُولِ والعَرْضِ مُثْجَم   أحَم الرَحَى واهي العَرَا دَائِم القَطْرِ[24]
و مَا بِي سُقْيَا الأَرْضِ لَكِنْ تُرْبَةَ   أضَلَكَ فِي أَحْشَائِهَا مُلْحَدَا القَبْرِ

فالشاعر يصف كرم المقبور في حياته فيدعو له بالسقيا، ليس طلبا في القطر للأرض عامة بل لتربة حوَت في داخلها شخصا يُذكر خصاله. و المهلهل يشفع دعاءه بما يبرره من مناقب أخيه كليب فتكون السقيا بمثابة الجزاء على ما كان من كرمه و جوده في حياته فيقول[25]:

سَقَاكَ الغَيْثُ أنكَ كُنْتَ غَيْثًا   و يُسْرًا حِينَ يُلْتَمَسُ اليَسَارُ

و قد إختلف العرب في سبب إستسقائهم للقبور فقال الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البطليوسي: تدعو العرب بالسقيا ليكثر الخصب حولها فيقصدها كل من مرّ بها دعا لها بالرّحمة.أو القصد من هذا الدعاء أن تبقى هذه القبور غضّة من الدروس طريّة لا يتسلط عليها ما يزيل جدّتها و نضارتها، فالسقيا رحمة و ضدّها عذاب[26].

و من عادة العرب أيضا نضح القبر بالخمر، فها هو حاتم الطائي ينصح إمرأته بذلك[27]:

أَمَاوِيُّ! إمَّا مِتُّ فاسْعــِي بنُــطْفَةٍ مِنَ الخَمْرِ، رِيّا فانْضَحِنَّ بِهَا قبْرِي

و من طقوس البر بالموتى و محاولة إبقاء ذكراهم كانت العرب تعقر رواحلها و ينضحون على القبور دمهـــا ,إيمانا منهم أنّ صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته فهو إعتراف لصنيعه و تقليد لكرمه[28].
و من ذلك ما جاء في رثاء زياد بن الأعجم للمغيرة[29]:

فـَإِذَا مَرَرْتَ بـِقَبْـرِ فَاعـقْر بـِهِ كَوْمَ الجِـلادِ و كُلَّ طِرْفٍ سَابِحِ[30]
و انْضـَحْ جَوَانِبَ قَبـْرِهِ بِدِمـَائِهـَا فَلـَقَدْ يـَكُونُ أخـَادِمَ و ذَبَائِحِ

و قد يكون هذا الطقس له علاقة مع عادة الجاهلين و هي العِتْرُ عند الأصنام. فهم ينحرون الإبل أو الغــنم ثــم تترك لا يصد عنها إنسان و لا سبع[31]. و الشواهد على عقر الإبل كثيــرة فيمـــا رواه المبــرد فـــي الكامـــل و الأصفهاني في الأغاني.

فالقبر عند العرب مكان محترم مقدّس ,فكانوا يضعون علامات حوله أو يضربون القباب عليه حتّى لا يصـــبح رمسا .و قد نهى الإسلام عن تسنيم القبور للقضاء على ظاهرة تقديس القبور والتي هي من الوثنيّة.

و من المراسيم الجنائزية التي فرضها المجتمع العربي على أهل الميت حلق الشعر، تعلن به المرأة حدادها على الفقيد بتخلّيها عما يزيّنها و يظهر جمالها. في هذا يقول لُقَيط[32]:

لَيــْتَ شــِعــْرِي عنك ــ دُخْنَتُوسُ إذَا أتــَاكَ الخَبــَرُ المَرْمــُوسُ
أَتــَحْلقُ القــُرونَ أَمْ تَمــِيس لاَ بــَلْ تَمِيسُ إنــَّهَا عَرُوس[33]

فعاطفة الأبوة عند الشاعر تفرض عليه أن ينصح إبنته ألاّ تحلق شعرها و تفقد جمالها . فالتقاليد كانت متحكمة في المجتمع الجاهلي بشكل كبير . كما إشتهر العرب باللّطم و شقّ الجيوب دلالة على الحزن.

وكانت المرأة إذا توفي زوجها دخلت خفشا ولبست شرّ ثيابها حتّى تمرّ بها سنة 34,لا تمسّ ماء ولا تُقلّم

ظفرا ولا تزيل شعرا, وفاء وحزنا عليه. هذه هي عقلية العرب التي سادت في العصر الجاهلي و التي شملت أفكارا وأفعالا عبّرت عن معتقدات إكتسبها على مرّ السنين أقرّ الإسلام جزءا من الأحكام و الشعائر التي لا تتنافى والتشريع الإسلامي و حرّم الأخرى.

الإحالات:

1 – فراس السواح: الأسطورة و المعنى: دراسات في الميثولوجيا و الديانات الشرقية ص 129.

2 ـــ محمد أركون: العلمنة و الدين. دار الساقي لندن 1990، ص 24.

3 ـــ البلية: هي راحلة الميت توقف على قبره معكوسة رأسها على يدها ملفوفة الرأس في وليتها لا تُعلف و لا تُسقى حتى تموت ليركبها إذا خرج من قبره.

4 ـــ من الطقوس اليونانية وضع صورة لرأس ميدوز (رأس مرعب عليه ثعابين) لمنع الموتى من إعادة تعكير حياة الأحياء.

5 ـــ فراس السواح: دين الإنسان، منشورات دار علاء الدين، سوريا 2002. ص 212.

6 ـــ إمرؤ القيس: ديوانه. شرحه عبد الرحمان المصطاوي، دار المعرفة لبنان ط 2 ، 2004 ص 162.

[7] ـــ مر مّلينا: ملطخين بالدماء. بنو مرينا: قوم من أهل الحيرة.

[8] ـــ الألوسي: بلوغ الأرب ج 2 ص 287.

[9] ـــ الأساة: جمع الآسي و هو الطبيب. زفّ: أسْرع المشي. العطن: مريض البقر و الغنم. شخص البصر: فتح عينيه و جعل لا يطرف.

الغِسلة: الخطْمِي نبات يحلّل بالماء و هي العِظةُ. رمّ الثوب: أصلحه. رنّ: صاح. السدر: ورق النبق.

[10] ـــ محمد نعمان الجارم: أديان العرب في الجاهلية مطبعة السعادة مصر ط 1 ص 87.

[11] ـــ حيث تركه أبناءه ليلتين أو ثلاثا لا يدفنانه حتى أنتن في بيته. فقال لهما رجل من قريش: ويحكما ألا تستحيان.....إنطلقا فأنا معكما. فما غسلوه إلاّ قذفا بالماء عليه من بعيد، ما يمسونه. انظر طبقات ابن سعد ص 74.

[12] ـــ العدسة: مرض معد خافه العرب مثل الطاعون.

[13] ـــ الحنوط: كتاب عطر مركب من أشياء طيبة الرائحة يخلط للميت.

[14] ـــ الخطيب التبريزي: شرح ديوان عنترة. دار الكتاب العربي لبنان ط 1 1993 ص 42.

[15] ـــ اللفافة: ما يلف به على الرِّجل و غيرها، جمعه لفائف يراد بها هنا الكفن.

[16] ـــ الترجيل: تسريح الشعر و لم يُقرِ الشرع الإسلامي ذلك.

[17] ـــ انظر ابن قتيبة: الشعر و الشعراء تحقيق أحمد محمد شاكر دار المعارف مصر. ج 1 ص 386.

[18] ـــ المرزباني: معجم الشعراء، باب ذكر من إسمه مالك.

[19] ـــ يعتقد العرب أنّ طائرا يخرج من رأس الميت يُدعى الهامة و له صدى.

[20] ـــ الخنساء: الديوان ص 424.

[21] ـــ ابن قتيبة: الشعر و الشعراء ج 1 ص 80. و بلوغ الأرب ج 2 ص 146.

[22] ـــ أمّ عامر: لُقّبت الضّبع التي تنبش القبور بأمّ عامر.

[23] ـــ أبو القالي: الأمالي ص

[24] ـــ منجم: أي السحاب سريع المطر. الأخم: الأسود.

[25] ـــ ديوان المهلهل بن ربيعة شرحه طلال الحرب، الدار العالمية ص 32.

[26] ـــ انظر محمد نعمان الجارم: أديان العرب في الجاهلية ص 97.

[27] ـــ ديوان حاتم الطائي ص 45. و ابن قتيبة: الشعر و الشعراء ج 1 ص 246,

[28] ـــ انظر ابن منظور، لسان العرب مادة عقر.

[29] ـــ ابن قتيبة: الشعر و الشعراء ج 1 ص 431.

[30] ـــ العقر: إذا ضرب بالسيف قوائم البعير. الجلاد: جمع جلدة و هي أديم الإبل. الكوم: القطعة من الإبل. الهجان من الإبل: البيض الكرام. الطِرف: الكريم و الأصيل.

[31] ـــ انظر ابن هشام: السيرة النبوية ج 1 ص 164.

[32] ـــ لقيط بن زُرارة بن عُدْس و يكنّى أبا نهشل و أبا دُخْتَنُوس.

[33] ـــ أبو عبيدة: أيام العرب ص 250.

34- الزبيدي: تاج العروس ج 5 ص 70.